# أبو حامد الغزالي (*)

## ٨

## ﴿ تكفير المقلدين له ورأيه في الردة والكفر ﴾

الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى ، والاسلام ان تشهد أن لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت الى ذلك سبيلا. هكذا فسرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن صدق عليه هذا التفسير كان مؤمنا مسلما لا يخرجه من الاسلام الا تكذيبه لشيء مما جاء به الرسول ( ص ) من أمر الدين علما انه جاء به غير متأول فيه . وما عدا ذلك من مخالفة احكام الدين بالقول او الفعل او الاعتقاد يعد خطأ وسببه الغالب الجهل ومن الجهل ما يعذر صاحبه فيه كجهل الدقائق والامور الخفية ومنها ما لا يعذر فيه الا اذا كان قريب العهد بالاسلام كتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق والقول على الله بغير علم ، والحساب على الله تعالى .

وقد مضت سنة النبي ( ص ) وسيرة اصحابه ( رض ) بتحامي تكفير أحد ممن يظهر الاسلام ويصلي الى القبلة وان ظهرت عليه آيات النفاق وكانوا يعذرون من أخطأ في شيء من أمر دينه ويتلطفون في تعليمه وما زال امر المسلمين على هذه السنة حتى ظهر فيها الابتداع وصار لأهله فرق وشيع يدعون اليها ويناضلون دونها فكان منهم أن كفروا من يخالفونهم فيما انفردوا به وإن كان المخالفون هم السواد الأعظم الذين تلقوا الدين بالقول والعمل وحافظوا عليه قبل ظهور تلك البدعة . وقد كان من امر أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أن قاتل الخوارج المبتدعين وصلى على

(*) تابع لما نشر في ( ص ٨٣٣ ) من المجلد الثاني عشر

قتلاهم ولم يكفرهم ببدعتهم . فكان مما امتاز به أهل السنة والجماعة على أهل البدعة والفرقة أن اهل السنة لا يكفرون احدا من أهل القبلة لأنهم يجمعون الكلمة ويقون التفرق في الدين لشدة نهي كتاب الله عنه ووعيده لمن يقترفه . ولم تكن السنة مذهبا ولا مذاهب لبعض المسلمين فيتعصبون لها على غير أهلها بل كان كبار العلماء كأئمة الفقه الأربعة وشيوخهم من السلف ينذرون كل من خالفهم في اجتهادهم ويصابون معه كما كان يفعل الصحابة ( رض )

ثم حدثت المذاهب في الجماعة المنسوبة الى السنة فكانوا شيعا كل شيعة تنتمي الى امام من العلماء الذين كانوا على السنة وتتعصب لما نقل عنه وعن أتباعه وكل من انتسب اليه ثم تدرجوا من التعصب لاسموه مذهبهم الى تخطئة سواه من متبعي غيره من المذاهب المنسوبة الى علماء السنة مثل مذهبهم ثم الى التضليل ثم الى التكفير لهم ولعلماء المستقلين اذا خالفوا مذهبهم وهم مع هذا يعترفون بأنهم مقلدون وليس من شأن المقلد ان يبحث في تخطئة أحد لأنه تابع لغيره ولا علم له في نفسه وقد حدث من جراء هذه التعصبات فتن كثيرة سودت بها صحائف التاريخ

ان ظهور فتنة التكفير التي احدثها اهل البدعة في المنتسبين الى السنة جعل مصابها عاما في المسلمين حتى كانت السبب في وقوف حركة العلم دون بلوغ غايته المرجوة فيهم بل في رجوعه القهقرى لأن الاشتغال به صار محصورا في فهم كل جيل بعض كتب الأجيال التي قبله دون ان يكون له حكم مستقل في المسائل ومن لا يكون له حكم لا يكون له علم وهذا هو معنى ما نقل من اجماع سلفنا على ان المقلد لا يسمى عالما وعلى إطلاق أهل القرون الاولى لفظ العالم بمعنى المجتهد ولفظ الجاهل على المقلد وان قل الكتب بحثا وفهما . وكيف لا يرجع العلم القهقرى اذا كان من أنعم الله عليهم بالقرائح الذكية والاذهان الوقادة لا يستطيعون ان يشكروا الله عليها باستعمالها في استنباط مسائل العلوم إما خوفا من تكفير الناس إياهم اذا هم جاءوهم بغير ما وقف جهلهم عنده واما لاعتقادهم أن ذلك من العبث لانه لا ينفع به أحد ، وان هم استعملوا عقولهم والمثال ما ذكر فانها لا تأخذ حظها من الاستقلال ، ولا تبلغ الغاية في حلبة السباق ، ومن نصباه جلال العلم فجعله عاشقا

مستهترا ، لا يجد له من غرامه مهربا ، تتم به في خلواته ، وحجب محاسنه عن اصدقائه وعداته ، فان اضطر الى الكلام ، لاذ بالكنايات والاشارات والألغاز ، أصبو الى الشرق ان كانت منازلها في جانب الغرب خوف القيل والقال أقول في الخد خال حين أنعتها خوف الوشاة وما في الخد من خال

فمن تستغير عقول عامة المسلمين بمبادي العلوم التاريخية فتعلم ان أصحاب العمائم من المقلدين الجامدين ، قد اتخذوها عسكرا لمحاربة العلم والدين ، بتضليلهم وتكفيرهم للعلماء المستقلين المصلحين ، وأنهم بذلك مخالفون لهدي السنة التي كان عليها الائمة الذين يدعون اتباعهم والانتساب اليهم لأن أولئك الائمة متفقون على عدم تكفير أحد يشهد بواحدنية الله تعالى و بصدق رسوله محمد ( ص ) في جميع ما جاء به عن ربه عز وجل وان خالف في مباحثه ما هو المشهور عنهم بل وان خالف النصوص متأولا لا جاحدا ، وقد صرح بعض فقهائهم بناء على ذلك الاصل المجمع عليه عند السلف ( عدم تكفير أحد من المسلمين ) بأنه اذا وجد في قول قولي بكفر احد وقول واحد ضعيف بايمانه فيجب ان يفتى بهذا القول ويحكم بايمانه

* * *

بعد هذا التمهيد أقول إن أبا حامد الغزالي رحمه الله تعالى كان من أصحاب تلك اللوذعية والفطانة التي لا يرضى من أوتيها بكفر نعمتها وعدم استعمالها ، وان بدعة التكفير كانت قد انتقلت في زمنه من المبتدعة الى المنتسبين الى السنة ، وإنه جبن في أول عهده بالاستقلال في العلم عن إظهار ما خالف فيه اجتهاده ما عليه جمهور أهل عصره ثم اظهر بعض ذلك في الاحياء مع المداراة ، ونوع من المجاراة ، ثم قوي دينه وكمل يقينه فصرح في بعض كتبه المختصرة ( كالقسطاس المستقيم ) بما لم يصرح بمثله في الاحياء الذي ذم فيه التقليد في مواضع كثيرة وجرى فيه على تقليد الشافعي في اكثر الاحكام أو جميعها

هاج ذلك منه أصحاب العمائم ، وسكنة الاثواب الضاغب ، وعجزوا عن مناظرته فجردوا عليه سلاح الجهل والابتداع ، ورموه بالكفر والالحاد ، كما يفعل أقرانهم وأضرابهم

الى الآن ، فلم يعبأ بجهلهم ، ولم يرجع الى باطلهم ، ولا سكت عن إثارة الاذهان ، بما وصل اليه من العلم والعرفان ، وهكذا كان المصلحون وهكذا يكونون ، الى ان تستنير العامة فتميز بين العلماء المستقلين ، وبين الادعياء الجاهلين ، فيعود للامة الاسلامية مجدها ، وتطلع بعد الافول شمس سعدها ، والعاقبة للمتقين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ،

## فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة

كتاب وجيز كتبه في هذه المسألة ابو حامد رحمه الله تعالى جوابا لمن بلغه تكفير بعض المتعصبين اياه ، قال في أوله بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله وآله واصحابه مانصه

« أما بعد فاني رأيتك أيها الاخ المشفق ، والصديق المتعصب ، موفر الصدر منقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحشوة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها مايخالف مذهب الاصحاب المتقدمين ، وان العدول عن مذهب الاشعري ولو في قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الاخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك ، وقل من غربك قليلا ، « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا » ، واستحقر من لايحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لايعرف ، فأي داع أكل وأعقل من سيد المرسلين ، ( صلى الله عليه وسلم ) وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأي كلام أجل واصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الاولين ، وإياك ان تشتغل بخصامهم ، وتطمع في افحامهم ، فتطامع في غير مطمع ، وتصوت في غير مسمع ، أما سمعت ماقيل

كل العداوات قد ترجى مودتها ... الا عداوة من عاداك من حسد

ولو كان فيه مطمع لاحد من الناس ، لما تلي على أجلهم رقبة آيات الياس ، اوما سمعت قوله تعالى ( وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ) وقوله تعالى ( ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ) وقوله تعالى ( ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم

لقال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين ) وقوله تعالى ( ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون ) »اه

أقول يريد أبو حامد رحمه الله تعالى ان مثل هؤلاء الشيوخ الحاسدين المتعصبين على تقليدهم الاشعري كمثل أولئك المشركين لافي الشرك والكفر بل في الحسد والتعصب وجعل همهم كله في إهانة من حسدوه وإظهار انه على باطل وعدم توجيه أذهانهم الى فقه ما هو عليه والنظر في دليله، بل توجيهها الى مكابرته أو تأويله، وهكذا يفعل أشباههم في الحسد والتعصب اليوم : ندعوهم الى الكتاب والسنة ، ونطالبهم بالآية والحجة ، فيأبون الا التبرز بالالقاب ، والهجر والسباب ، ثم ذكر ابو حامد أن هؤلاء لم يبق فيهم استعداد لمعرفة الحق في الايمان والكفر وعلل ذلك بقوله « وانى تنجلي اسرار الملكوت لقوم آلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، وارادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم اغبادهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الايمان » ؟! ثم ذكر أن جل بغاضهم في العلم البحث في النجاسة ، وما أشبه ذلك مما لا يجلو بصيرة ، ولا يطهر سريرة »

## زلزال المقلدين وشأنهم

بعد تلك الفاتحة ذكر ابو حامد فصلا في حال المقلدين موجها الكلام الى مخاطبه قال : ( فصل ) فاما أنت اذا أردت ان تنتزع هذه الحسكة من صدرك ، وصدر من هو في حالك ، ممن لا تحركه غواية الحسود ، ولا تقيده عماية التقليد ، بل تعطشه الى الاستبصار لحزازة اشكال اثارها فكر وهيجها نظر ، فخاطب نفسك وصاحبك وطالبه بعد الكفر فان زعم ان حدّ الكفر ما يخالف مذهب الاشعري او مذهب المعتزلي او مذهب الحنبلي او غيرهم فاعلم انه غرّ بليد ، قد قيده التقليد ، فهو أعمى

من العميان ، فلا تضيع باصلاحه الزمان ، وناهيك حجة في افحامه ، مقابلة دعواه بدعوى خصومه ، اذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقا وفصلا . ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب الى الاشعري ، ويزعم ان مخالفته في كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلي ، فاسأله من أين ثبت له ان الحق وقف عليه ؟ حتى قضى بكفر الباقلاني اذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى وزعم أنه ليس هو وصفا لله تعالى زائدا على الذات ولم صار الباقلاني اولى بالكفر بمخالفته الاشعري من الاشعري بمخالفته الباقلاني ؟ ولم صار الحق وقفا على أحدهما دون الثاني ، أكان ذلك لاجل السبق في الزمان ؟ فقد سبق الاشعري غيره من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه ، أم لاجل التفاوت في الفضل والعلم ؟ فبأي ميزان ومكيال تقدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل في الوجود من متبوعه ومقلده ؟ فان رخص للباقلاني في مخالفته فلم حجر على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلاني والكرابيسي والقلانسي وغيرهم ؟ وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة ؟ وان زعم ان خلاف الباقلاني يرجع الى لفظ لا تحقيق وراءه كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعما انهما جميعا متوافقان على دوام الوجود والخلاف في أن ذلك يرجع الى الذات او الى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد فما باله يشدد القول على المعتزلي في نفيه الصفات ، وهو معترف بأن الله تعالى عالم محيط بجميع المعلومات ، قادر على جميع الممكنات ، وانما يخالف الاشعري في أنه عالم وقادر بالذات او بصفة زائدة فما الفرق بين الخلافين ؟ وأي مطلب أجل وأخطر من صفات الحق سبحانه وتعالى في النظر في نفيها واثباتها ؟

فان قال انما اكفر المعتزلي لانه يزعم ان الذات الواحدة تصدر منها فائدة العلم والقدرة والحياة وهذه صفات مختلفة بالحد والحقيقة والحقائق المختلفة تستحيل ان توصف بالاتحاد او تقوم مقامها الذات الواحدة فما باله لا يستبعد من الاشعري قوله ان الكلام صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى ومع كونه واحد (؟) هو توراة وانجيل وزبور وقرآن وهو أمر ونهي وخبر واستخبار وهذه حقائق مختلفة وكيف لا وحد الخبر ما يتطرق اليه التصديق والتكذيب ولا يتطرق ذلك الى الامر والنهي فكيف

تكون حقيقة واحدة يتطرق اليها التصديق والتكذيب ولا يتطرق فيجتمع النفي والاثبات على شيء واحد فان تخبط في جواب هذا او عجز عن كشف الغطاء فيه فاعلم انه ليس من أهل النظر وانما هو مقلد وشرط المقلد ان يسكت ويسكت عنه لانه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ولو كان أهلاً له كان مستجيبا تابعا واماما لا مأموما فان خاض المقلد في المحاجة فذلك منه فضول والمشتغل به صار كضارب في حديد بارد، وطالب لصلاح الفاسد، وهل يصلح العطار ما افسد الدهر، ولعلك ان انصفت علمت ان من جعل المرق وفقا على واحد من النظار بعينه فهو الى الكفر والتناقض اقرب. اما الكفر فلانه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل الذي لا يثبت الايمان الا بموافقته، ولا يلزم الكفر الا بمخالفته، وأما التناقض فهو ان كل واحد من النظار يوجب النظر وان لا نرى في ذلك الا ما رأيت وكل ما رأيته حجة وأي فرق بين من يقول قلدني في مجرد مذهبي وبين من يقول قلدني في مذهبي ودليلي جميعا وهل هذا الا التناقض » اه

أقول أيعتبر بهذا من يجلون في هذا العصر ابا حامد ويعبرون عنه بالامام وحجة الاسلام فيكفون عن الطعن في العلماء المستقلين الذين يدعون الامة الى البصيرة في دينها والاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله (ص) ام يحملهم الحسد على الاصرار على الطعن فيهم وتنفير العامة منهم بذلك اللقب المقوت عندهم ( الاجتهاد ) ويوهمونها ان دعاة الكتاب والسنة يمنعونها من اتباع الائمة ، والصواب الذي يمنعها من ذلك اولئك المقلدون الجاهلون الذين لم يتبعوا الائمة في الاهتداء بالكتاب والسنة ولا قرءوا كتبهم وانما يريدون ان تكون العامة وراءهم متبعة لهم والمستقلون لا يدعون احدا الى اتباعهم وتقليدهم في شيء قط وانما يدعونهم الى الرجوع الى الاصل

## حد الكفر وتعريفه

قال أبو حامد : ( فصل ) لعلك تشتهي ان تعرف حد الكفر بعد ان تناقض عليك حدود اصناف المقلدين فاعلم ان شرح ذلك طويل ومدركه غامض ولكني اعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوي بسببها عن

تكفير الفرق وتطويل اللسان في اهل الاسلام وان اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول لا إله الا الله محمد رسول الله صادقين بها غير مناقضين لها فأقول :

الكفر هو تكذيب الرسول عليه السلام في شيء مما جاء به والايمان تصديقه في جميع ما جاء به — الى أن قال في اجمال التفريع على هذا التعريف — فكل كافر مكذب للرسول وكل مكذب فهو كافر فهذه هي العلامة المطردة المنعكسة

( فصل ) اعلم ان الذي ذكرناه مع ظهوره تحته غور بل تحته كل الغور لأن كل فرقة تكفر مخالفها وتنسبه الى تكذيب الرسول عليه السلام فالحنبلي يكفر الاشعري زاعما انه كذّب الرسول في اثبات الفوق لله تعالى وفي الاستواء على العرش ، والاشعري يكفره زاعما انه مشبّه وكذب الرسول في انه ليس كمثله شيء ، والاشعري يكفر المعتزلي زاعما انه كذب الرسول في جواز رؤية الله تعالى وفي اثبات العلم والقدرة والصفات له ، والمعتزلي يكفر الاشعري زاعما ان اثبات الصفات تكفير للقدماء وتكذيب للرسول في التوحيد ولا ينجيك من هذه الورطة الا ان تعرف حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه فينكشف لك غلوّ هذه الفرق واسرافها في تكفير بعضها بعضا

فأقول : التصديق انما يتطرق الى الخبر بل الى المخبر وحقيقته الاعتراف بوجود ما اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده إلا ان للوجود خمس مراتب ولأجل الغفلة نسبت كل فرقة مخالفها الى التكذيب فان الوجود ذاتي وحسي وخيالي وعقلي وشبهي فمن اعترف بوجود ما اخبر الرسول عليه السلام عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الاطلاق فلنشرح هذه الاصناف الخمسة ولنذكر امثالها في التأويلات :

اما الوجود الذاتي فهو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس والعقل ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة فيسمى اخذه ادراكا وهذا كوجود السموات والارض والحيوان والنبات وهو ظاهر بل المعروف الذي لا يعرف الا كثيرون للوجود معنى سواه

وأما الوجود الحسي فهو ما يتمثل في القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين فيكون موجودا في الحس ويختص به الحاس ولا يشاركه غيره وذلك كما يشاهده النائم بل كما يشاهده المريض المستيقظ اذ قد تمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتى يشاهدها كما يشاهد سائر الموجودات الخارجة عن حسه بل قد تتمثل للانبياء والأولياء في اليقظة والصحة صور جميلة محاكية لجواهر الملائكة وينتهي اليهم الوحي والالهام بواسطتها فيتلقون من أمور الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال تعالى ( فتمثل لها بشرا سويا ) وكما أنه عليه السلام رأى جبريل كثيرا ولكن ما رآه في صورته الا مرتين وكان يراه في صور مختلفة يتمثل بها وكما يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقد قال « من رآني في النوم فقد رآني حقا فان الشيطان لا يتمثل بي » ولا تكون رؤيته بمعنى انتقاله من روضة المدينة الى موضع النائم بل هي على سبيل وجوده في حس النائم فقط وسبب ذلك وسره طويل وقد شرحناه في بعض الكتب فان كنت لا تصدق به فصدق عينك فانك تأخذ قبسا من نار كأنه قطعة ثم تحركه بسرعة حركة مستقيمة فتراه خطا من نار وتحركه حركة مستديرة فتراه دائرة من نار والدائرة والخط مشاهدان وهما موجودان في حسك لا في الخارج عن حسك لأن الموجود في الخارج هي قطعة في كل حال وانما تصير خطا في أوقات متعاقبة فلا يكون الخط موجودا في حالة واحدة وهو ثابت في مشاهدتك في حالة واحدة

واما الوجود الخيالي فهو صورة هذه المحسوسات اذا غابت عن حسك فانك تقدر على ان تخترع في خيالك صورة فيل وفرس وان كنت مغمضا عينيك حتى كأنك تشاهده وهو موجود بكمال صورته في دماغك لا في الخارج

وأما الوجود العقلي فهو ان يكون الشيء روح وحقيقة ومعنى فيتلقى العقل مجرد معناه دون ان يثبت صورته في عقل أو حس أو خارج كاليد مثلا فان صورتها محسوسة ومتخيلة ولها معنى هو حقيقتها وهي القدرة على البطش والقدرة على البطش هي اليد العقلية والقلم صورة ولكن حقيقته ما تنقش به العلوم وهذا يتلقاه العقل من غير ان يكون مقرونا بصورة قصب وخشب وغير ذلك من الصور الخيالية والحسية

واما الوجود الشبهي فهو أن لا يكون نفس الشيء موجودا الا بصورته ولا بحقيقته لا في الخارج ولا في الحس ولا في الخيال ولا في العقل ولكن يكون الموجود شيئا آخر يشبهه في خاصة من خواصه وصفة من صفاته وستفهم هذا إذا ذكرت لك مثاله في التأويلات فهذه مراتب وجود الاشياء

( فصل ) اسمع الآن امثلة هذه الدرجات في التأويلات . أما الوجود الذاتي فلا يحتاج الى مثال وهو الذي يجري على الظاهر ولا يتأول وهو الوجود المطلق الحقيقي وذلك كاخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن العرش والكرسي والسموات السبع فانه يجري على ظاهره ولا يتأول اذ هذه اجسام موجودة في انفسها ادركت بالحس والخيال او لم تدرك

واما الوجود الحسي فأمثلته في التأويلات كثيرة واقنع منها بمثالين : احدهما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش املح فيذبح بين الجنة والنار » فان من قام عنده البرهان على ان الموت عرض او عدم عرض وأنّ قلب العرض جسما مستحيل غير مقدور ينزّل الخبر على ان اهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون انه الموت ويكون ذلك موجودا في حسهم لا في الخارج ويكون سببا لحصول اليقين باليأس من الموت بعد ذلك إذ المذبوح ميؤس منه ومن لم يقم عنده هذا البرهان فحسبه ان نفس الموت ينقلب كبشا في ذاته ويذبح

المثال الثاني قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرضت علي الجنة في عرض هذا الحائط » فمن قام عنده البرهان على ان الاجسام لا تتداخل وان الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على ان نفس الجنة لم تنقل الى الحائط لكن تمثل للحس صورتها في الحائط حتى كأنه يشاهدها ولا يمتنع ان يشاهد مثال شيء كبير في جرم صغير كما نشاهد السماء في مرآة صغيرة ويكون ذلك ابصارا مفارقا بمجرد تخيل صورة الجنة اذ تدرك التفرقة بين ان ترى صورة السماء في المرآة وبين ان تغمض عينيك فتدرك صورة السماء في المرآة على سبيل التخيل

واما الوجود الخيالي فمثاله قوله صلى الله عليه وسلم « كأني انظر الى يونس

ابن متى عليه عباءتان قطونيتان يلبي وتجيبه الجبال والله تعالى يقول له لبيك يا يونس ، والظاهر ان هذا إنباء عن تمثيل الصورة في خياله اذ كان وجود هذه الحالة سابقا على وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انعدم ذلك فلم يكن موجودا في الحالة ولا يبعد ان يقال ايضا تمثل هذا في حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد النائم الصور ولكن قوله ( كأني انظر ) يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر والغرض التفهيم بالمثال لا عين هذه الصورة وعلى الجملة فكل ما يتمثل في محل الخيال فيتصور أن يتمثل في محل الابصار فيكون ذلك مشاهدة وقل ما يتميز بالبرهان استحالة المشاهدة فيما يتصور فيه التخيل

وأما الوجود العقلي فأمثلته كثيرة نأتي منها بمثالين : أحدهما قوله صلى الله عليه وسلم « آخر من يخرج من النار يعطى من الجنة عشرة امثال هذه الدنيا » فان ظاهر هذا يشير الى انه عشرة أمثالها بالطول والعرض والمساحة وهو التفاوت الحسي والخيالي ثم قد يتعجب فيقول إن الجنة في السماء كما دلت عليه ظواهر الاخبار فكيف تقسم السماء لعشرة امثال الدنيا والسماء ايضا من الدنيا وقد يقطع المتأول هذا العجب فيقول المراد به تفاوت عقلي لا حسي ولا خيالي كما يقول مثلا هذه الجوهرة أضعاف الفرس أي في روح المالية ومعناها المدرك عقلا دون مساحتها المدركة بالحس والتخيل

المثال الثاني قوله صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى خمر طينة آدم بيده اربعين صباحا » فقد أثبت لله تعالى يدا ومن قام عنده البرهان على استحالة يد لله تعالى هي جارحة محسوسة أو متخيلة فانه يثبت لله سبحانه يدا روحانية عقلية أعني انه يثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صورتها ان روح اليد ومعناها ما به يبطش ويفعل ويعطي ويمنع والله تعالى يعطي ويمنع بواسطة ملائكته كما قال عليه السلام « أول ما خلق الله العقل فقال ـ لك اعطي ولك أمنع ـ » ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقل عرضا كما يعتقده المتكلمون إذ لا يمكن أن يكون العرض أول مخلوق بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلا من حيث يعقل الاشياء بجوهره وذاته من غير حاجة الى قلم وربما يسمى قلما باعتبار أنه تنقش به حقائق العلوم في ألواح قلوب الانبياء والاولياء وسائر الملائكة وحيا وإلهاما فانه قد

ورد في حديث آخر أن « اول ماخلق الله تعالى القلم » فان لم يرجع ذلك الى العقل تناقض الحديثان ويجوز ان يكون لشيء واحد اسماء كثيرة باعتبارات مختلفة فيسمى عقلا باعتبار ذاته وملكا باعتبار نسبته الى الله تعالى في كونه واسطة بينه وبين الخلق وقلما باعتبار إضافته الى مايصدر منه من نقش العلوم بالالهام والوحي كما يسمى جبريل وروحا باعتبار ذاته واميناً باعتبار ما أودع من الاسرار وذا مرة باعتبار قدرته وشديد القوى باعتبار كمال قوته ومكينا عند ذي العرش باعتبار قرب منزلته ومطاعا باعتبار كونه متبوعا في حق بعض الملائكة

وهذا القائل يكون قد اثبت قلما ويدا عقليا لا حسيا وخياليا وكذلك من ذهب الى ان اليد عبارة عن صفة لله تعالى إما القدرة أو غيرها كما اختلف فيه المتكلمون

وأما الوجود الشبهي فمثاله الغضب والشوق والفرح والصبر وغير ذلك مما ورد في حق الله تعالى فان الغضب مثلا حقيقته انه غليان دم القلب لارادة الشفي وهذا لايمكن من نقصان وألم فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى ثبوتا ذاتيا وحسيا وخياليا وعقليا نزله على ثبوت صفة اخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب كارادة العقاب والارادة لا تناسب الغضب في حقيقة ذاته ولكن في صفة من الصفات تقارنها وأثر من الآثار يصدر عنها وهو الايلام فهذه درجات التأويلات

( فصل ) اعلم ان كل من نزل قولا من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين وانما التكذيب ان ينفي جميع هذه المعاني ويزعم ان ماقاله لامعنى له وانما هو كذب محض وغرضه فيما قاله التلبيس اومصلحة الدنيا وذلك هو الكفر المحض والزندقة

ولا يلزم كفر المؤولين مادامو يلازمون قانون التأويل كما سنشير اليه . وكيف يلزم الكفر بالتأويل وما من فريق من أهل الاسلام إلا وهو مضطر اليه فأبعد الناس عن التأويل احمد بن حنبل رحمة الله عليه

وأبعد التأويلات عن الحقيقة واغربها أن تجعل الكلام مجازا او استعارة

هو (؟) الوجود العقلي والوجود الشبهي والحنبلي مضطر إليه وقائل به فقد سمعت الثقاة من ائمة الحنابلة ببغداد يقولون ان احمد بن حنبل رحمه الله تعالى صرّح بتأويل ثلاثة احاديث فقط احدها قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الاسود يمين الله في الارض » والثاني قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن » والثالث قوله صلى الله عليه وسلم « اني لاجد نفس الرحمن من قِبَل اليمن » فانظر الآن كيف اول هذا حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره فيقول - اليمين تقبل في العادة تقربا الى صاحبها والحجر الاسود يقبل ايضا تقربا الى الله تعالى فهو مثل اليمين لا في ذاته ولا في صفات ذاته ولكن في عارض من عوارضه فسمي لذلك يمينا وهذا الوجود هو الذي سميناه الوجود الشبهي وهو ابعد وجوه التأويل

فانظر كيف اضطر اليه أبعد الناس عن التأويل وكذلك كاستحال عنده وجود الاصبعين لله تعالى حسا اذ من فتش عن صدره لم يشاهد فيه اصبعين فتأوله على روح الاصبعين وهي الاصبع العقلية الروحانية أعني ان روح الاصبع مابه يتيسر تقليب الاشياء وقلب الانسان بين لمة الملك ولمة الشيطان وبهما يقلب الله تعالى القلوب فكني بالاصبعين عنهما وانما اقتصر احمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الاحاديث الثلاثة لانه لم تظهر عنده الاستحالة الا في هذا القدر لانه لم يكن ممتافي النظر العقلي ولو امعن لظهر له ذلك في الاختصاص بجهة فوق وغيره مما يتأوله، والاشعري والمعتزلي لزيادة بحثهما تجاوزا الى تأويل ظواهر كثيرة وأقرب الناس الى الحنابلة في أمور الآخرة الاشعرية وفقهم الله فانهم قرروا فيها اكثر الظواهر الا يسيرا، والمعتزلة أشد منهم توغلا في التأويلات ،وهم مع هذا - اعني الاشعرية - يضطرون ايضا الى تأويل أمور كما ذكرناه من قوله انه يؤتى بالموت في صورة كبش املح وكما ورد من وزن الاعمال بالميزان فان الاشعري أول وزن الاعمال فقال : توزن صحائف الاعمال ويخلق الله فيها اوزانا بقدر درجات الاعمال - وهذا رد الى الوجود الشبهي

البعيد فان الصحائف اجسام كتبت فيها رقوم تدل بالاصطلاح على اعمال هي اعراض فليس الموزون اذًا العمل بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل» والمعتزلي تأول نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد مقدار عمله وهو ابعد عن التعسف في التأويل بوزن الصحائف وليس الغرض تصحيح احد التأويلين بل ان تعلم ان كل فريق وان بالغ في ملازمة الظواهر فهو مضطر الى التأويل إلا ان يجاوز الحد في الغباوة والتجاهل فيقول الحجر الاسود يمين تحقيقيا» والموت وان كان عرضا فيستحيل فينقلب كبشا بطريق الانقلاب ، والاعمال وان كانت اعراضا وقد عدمت فتنتقل الى الميزان ويكون فيها اعراض هي الثقل ومن ينتهي الى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربقة العقل » اه

# باب المقالات

## التعاون والتخاذل (*

عصر في زمن فاز فيه المتعاونون ، وهلك فيه المتخاذلون ، سعدت فيه أمم بأعمال الجماعات » وشقيت امم باسرة الافراد » فالامم فيه درجات بعضها فوق بعض فأعلاها ما كثرت فيه الجمعيات ، المتعاونة على الخير بقدر كثرة الخيرات ، ويليها ما قلت فيه الجمعيات فقلتها من الخيرات والمنافع ما فضلها به مافوقها » ويعبر عن هذه الامم بالامم الحية العزيزة ، والحياة والعزة فيها متقارنة ـ أو مقولة بالتشكيك كما يقول المحققون ـ فذلك يخاف ويرجو بعضها بعضا ، وأية أمة عاقلة تأمن سنة الله في تنازع البقاء ، وطمع الاقوياء في الضعفاء ؟

(*) نشرنا هذه المقالة واتبعنا فيها بجريدة الحضارة التي تصدر في الاستانة